كلمة التحرير

إسماعيل راجي الفاروقي وواجب الوفاء

هيئة التحرير

شهد العالم الإسلامي ظهور العديد من المفكرين والمصلحين والمدارس الإصلاحية، أمثال الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي ومحمد رشيد رضا وابن عاشور، إلخ، الذين حاولوا تشخيص الأزمة التي تعاني منها الأمة الإسلامية في القرنين السابقين. وقد تنوّعت تشخيصاتهم وخطاباتهم وأدواتهم ومناهجهم الإصلاحية؛ إذ ركزت بعض الحركات الإصلاحية على الجانب التربوي، وبعضها على الجانب السياسي، وأخرى على الجانب العقدي، إلخ. وثمة تيارات نظرت إلى هموم الأمة وأدوائها ضمن الدائرة الإنسانية العالمية، وموقع المسلم من الحراك الفكري العالمي، وإسهامه في بناء الحضارة الإنسانية وترشيدها، وكان من بين من مثّلوا هذا التوجّه مدرسةُ إسلامية المعرفة، التي استهدفت بناء الرؤية الإسلامية القرآنية، وتفعيل النظام المعرفي الإسلامي، وحققت في ذلك إنجازات مقدَّرة.

ويُعد إسماعيل الفاروقي من أبرز شخصيات الإصلاح الفكري الإسلامي وجهود النهوض الحضاري للأمة، والعَلَم الأبرز في مدرسة إسلامية المعرفة؛ وغدا إنتاجُه الفكري، وتنظيراتُه في مجال تأصيل العلوم، وتأسيساتُه المعرفية، مرجعاً مهمّا في أدبيات الأديان المقارنة والتأصيل الإسلامي للمعرفة، والتكامل المعرفي، ومنهجية التعامل مع التراث الإسلامي والفكر الغربي بمختلف تجلياته. وإن من الوفاء لجهود الإصلاح الفكري المعاصر، الحديث عن الفاروقي بعد ربع قرن من وفاته، بطريقة علمية تعرض الخطاب الإصلاحي الفكري الذي أسهم في تأسيسِه وتحليلِه وتنقدُه.

لا نعرف أحداً تعرّف على الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي، يرحمه الله، إلا ويذكر أنَّه كان إنساناً متميِّزاً في شخصيته، وعِلْمِه، وفِكْره، وخُلُقه. يشهد بذلك كبار العلماء الذين عرفوه وحاوروه، والزملاء الذين عملوا معه، والطلبة التي تعلَّموا على يديه، ويستوي في ذلك مِنْ هؤلاء مَنْ كان مسلماً أو غير مسلم. يقولون: إنَّ شخصيته تميَّزت بالحيوية،

والمبادأة، والإقدام، والإصرار؛ وأنَّ فِكْرَه تميَّز بالاجتهاد، والتجديد، والوضوح، وقوة الحجة؛ وأنَّ عِلْمَه تميَّز بالإحاطة، والتكامل، والعمق، والسعة؛ وأنَّ خُلُقَه تميَّز بالصدق، والوفاء، والمحبة، والتواضع. ولعل ما ذكرنا من صفات في الفاروقي تُعدّ عاملاً مهماً ومقوّماً أساساً في شخصية المصلح؛ إذ تختفي بصمته الجغرافية والعِرقية والمذهبية، ليغدو صوتاً إنسانياً يعبّر عن الضمير الإنساني، الذي نعتقد اعتقاداً جازماً بأن الفكر الإسلامي أصدق من يُعبّر عن هذا الضمير.

تألَّق إسماعيل الفاروقي في عدد من المجالات، فقد جمع من العلوم الاجتماعية الحديثة، وعلوم التراث الإسلامي، ما جعله حُجة في المجالين؛ وجمع من المعرفة بأديان العالم القديمة والحديثة ما جعل كتاباته فيها مادة مرجعية للباحثين والمتخصصين. وقد وعى الفاروقي أهمية التكامل المعرفي بين العلوم الاجتماعية والإنسانية من جهة، وعلوم الشريعة من جهة أخرى، وقد مارس ذلك عملياً؛ إذ درس الفلسفة الغربية في أمريكا، فوعاها وهضمها ونقدها وأنتج فيها، وشعر بأنه بحاجة إلى التمكُّن من التراث، فنهل الدراسات الشرعية من الأزهر، وكان لهذا الوعي في فهم الذات والآخر، والمزج بين العلوم الاجتماعية والشرعية، أثره في نقد المنهجية الغربية المعاصرة، ونقد المنهجية الإسلامية التقليدية، وإبراز الحاجة إلى إحداث التركيبة الخلاّقة على حدّ قوله.

ومع أنَّه فيلسوف بحكم التخصص والممارسة، ومفكِّر بحكم العطاء والإنجاز، فقد جمع بالإضافة إلى ذلك بين يقين العالِم، وجدِّيَّة الباحث، وحُرقة الداعية، وحَرَكيَّة المصلح. وحين نقرأ عن علماء السلف من أمثال حجة الإسلام "أبو حامد الغزالي"، وقاضي الجماعة "أبو الوليد ابن رشد"، وشيخ الإسلام "أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية"، ونعجب من موسوعيتهم، وكثرة تآليفهم، وبقاء أثرهم عبر القرون، ونشهد في حياتنا موسوعية الفاروقي، وكثرة تآليفه، وامتداد أثره، فإن ذلك يجعلنا لا نتردد في عدِّه في مصافِّ أولئك الأعلام، واليقين بأنَّ أمَّتنا أمَّةٌ ولاّدة، تنجب أمثال هؤلاء الأفذاذ كلَّ حينٍ بإذن ربِّها.

وإذا كانت السنوات التي مضت منذ استشهاد الفاروقي عام ١٩٨٦م لم تشهد جهوداً كافية للتعريف به وبإنجازاته وبإسهاماته، فإننا نأمل أن يقيّض الله لهذه الإنجازات

من يعطيها حقَّها من التعريف والنَّشر والتوظيف، ليس من باب الوفاء للفاروقي والاعتراف بفضله وحسب، وإنما لأنّ أجيال الأمة بحاجة ماسّة إلى العلم بهذه الإنجازات، وتوظيفها، والبناء عليها. ولعلّ من حسن الطالع أن نلحظ أن الاهتمام المنشود بالفاروقي وبإنجازاته قد أخذ بالتزايد في السنوات الأخيرة، فعقدت مؤتمرات في بريطانيا وماليزيا والأردن، شارك فيها بعض من رافق الفاروقي في مسيرته العلمية والعملية، أو تتلمذ على يديه في الدراسة. كما شارك فيها عدد من الباحثين والعلماء الذين دفعهم تأثرهم بما قرأوه من مؤلفات الفاروقي، إلى الكشف عن جوانب من الأهمية والتميّز في أفكاره والحاجة إلى نشرها وتوظيفها، لا سيما أن الفاروقي قد استقر في مجتمع يحكمه نظام معرفي غربي يختلف كلياً عن النظام المعرفي الإسلامي، من حيث المصدر والرؤية والأداة والغاية والبِنية، فحاول نقد الأسس الفلسفية والعقدية للنظام المعرفي الغربي، عاملاً في الوقت ذاته على بلورة نموذج معرفي إسلامي بديل. مما يجعل الحاجة مُلحّة للبناء على إرث الفاروقي، والانطلاق مما انتهى إليه لا مما بدأ به.

ومن المعروف أن الفاروقي كان يحاضر ويكتب بالعربية والإنجليزية والفرنسية، لكن موقعه الأكاديمي في الجامعات الأمريكية، منذ عام ١٩٤٨ إلى تاريخ استشهاده عام ١٩٨٦م جعل معظم كتاباته بالإنجليزية، ولم يترجم منها إلى العربية إلا القليل. وربما يفسر ذلك الضعف الملحوظ في حضور الفاروقي في الساحة الفكرية والثقافية والأكاديمية العربية، بالمقارنة بحضوره في البلدان الإسلامية غير العربية. فضلاً عن أسباب أخرى تعود إلى الحصار الذي تعرّض له الفاروقي، نتيجة المعارك المبدئية والمواقف الصلبة التي اتخذها إزاء النفوذ الصهيوني في العالم الغربي، والفساد والاستبداد في العالم العربي. وهو الحصار الذي انتهى بتصفيته الجسدية، فقتل شهيداً مع زوجته ورفيقة علمه وجهاده، في منزله في فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية. ولعلَّ المتتبع لسيرة الفاروقي المجتمعية والعلمية، سيكتشف الجهاد الفكري الذي كان يُنظّر له الفاروقي ويمارسه، في جميع الدوائر المعرفية والمؤسسات الفكرية والثقافية والأكاديمية والبحثية، سواء أكانت من الدائرة المعرفية الغربية بشقيها: العلماني والديني، أم الدائرة المعرفية الإسلامية بمدارسها المذهبية والفكرية والفلسفية. لذلك رأيناه طاقة لا يكلّ ولا يملّ، وكأنّه يسابق الزمن حتى يحقق أكبر قدر

من الإنجاز قبل أن يدركه الأَجَل، فمما يُذكر في هذا السياق أن أحد المعجبين بكثرة كتاباته، سأله عن السرِّ في غزارة إنتاجه وإنجازه، فقال له الفاروقي: "أحرص أن لا أنام في كل ليلة قبل أن أكتب عشر صفحات على الأقل." وهذا الموقف يكشف عن حضور العالم العامل في كل مناحي الحياة وأشكال التعبير عنها، والمتفحص مؤلفاته يجد هذا الجهاد الفكري ذا البُعد النقدي، الذي من خلاله استطاع أن يُقنع عدداً لا بأس به من المثقفين والأكاديميين بفكرة النَّظر المنصف تجاه قضايا العالم دون أحكام مسبقة، ودون تأثّرات ذاتية تحرف العقل عن ممارسة التفكير بحرية. وإن لم يستطع أن يقنع الآخر فربما قام بتحريك الماء الراكد عنده، لكي يُعمل فكره في القضايا التي تُشكّل شخصيته وتنتظم مجتمعه.

لم يصرف الفاروقيَّ تخصصُه الفلسفي، وعملُه الأكاديمي، عن الجهاد في ميدان الخدمة العامة، فكان يتنقل محاضراً وأستاذاً زائراً في شرق الأرض وغربها. ومع ذلك كان يؤمن بضرورة بناء المؤسسات المستقرة، التي تضمن استمرار العمل، بعد غياب المؤسِّسين، فناضل سنوات طويلة في سبيل أن يكون للإسلام موقع في الأكاديمية الأمريكية للأديان(AAR)، ونجح في ذلك، وعمل رئيساً لقسم الإسلام في الأكاديمية، وأسهم في إنشاء جمعية العلماء الاجتماعيين المسلمين في الولايات المتحدة وكندا (AMSS) وكان أول رئيس لها، وفي إنشاء مؤسسة الوقف الإسلامي في أمريكا الشمالية (NAIT) وعمل مديراً لها، وفي إنشاء المعهد العالمي للفكر الإسلامي (IIIT) وعمل مديراً ورئيساً له. وكل هذه المؤسسات استمرت ولا تزال في عملها.

لقد شُغل الفاروقي وأشغل من معه بالإصلاح التعليمي؛ إذ ركز على الكشف عن العلل التي تواجه نظام التعليم الجامعي، ورأى أن أزمة الأمة الإسلامية في نظامها التعليمي، فاهتم بالتعليم الجامعي، ودعا إلى الجامعة القائمة على مبدأ التكامل المعرفي. ولحسن الحظ فإن ثمة كتابات غير قليلة تتعلق بالإصلاح الجامعي كتبها الفاروقي بالعربية، مما يعطي فرصة كبيرة للبناء على الرؤى الفاروقية في مجال الإصلاح الجامعي وتطويره، لا سيما في مجال: التدريس والبحث العلمي والبرامج الجامعية وبناء شخصية الأستاذ الجامعي المتسقة مع هوية الأمة.

ولعل المؤتمر العلمي الذي نظّمه المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الأردن، بالتعاون مع جامعة اليرموك وجامعة العلوم الإسلامية العالمية، في نوفمبر ٢٠١٢م، هو أول مؤتمر يعقد في العالم العربي عن العطاء الفكري للمرحوم إسماعيل الفاروقي. وقد قُدِّم للمؤتمر أربعة وعشرون بحثاً، عن جوانب العطاء الفكري والإسهام العلمي للفاروقي، ونأمل أن تصدر هذه البحوث في كتاب مرجعي باللغة العربية، لكننا حرصنا أن تحظى مجلة إسلامية المعرفة بشرف تخصيص عدد خاص من المجلة عن الشهيد الفاروقي، فكان هذا العدد؛ إذ اخترنا له عدداً من البحوث التي قُدّمت للمؤتمر المذكور، وكان اصطفاؤنا لهذه البحوث منهجياً؛ فقد حاولنا أن نتلمَّس الأبعاد الفكرية والمنهجية في أعمال الفاروقي في مجالات معرفية وقضايا فكرية متنوعة، لنرسم خارطة فكرية للفاروقي ما استطعنا إلى ذلك سبيلا. ولتحقيق هذا الهدف أضفنا بعض الأوراق العلمية التي استكتبنا أصحابها، ولم يكن لها وجود في المؤتمر، مثل القراءة المخصصة لكتاب أطلس الحضارة الإسلامية، لما لهذا الكتاب من أهمية في الكشف عن منهج الفاروقي في معالجة الأبعاد الحضارية والثقافية – بالمفهوم الواسع للثقافة– للحضارة العربية الإسلامية، فضلاً عن الفائدة الكبيرة التي تُجنى من العمل الجماعي؛ إذ مثّل هذا الكتاب تألقاً وتمازجاً وصَهْراً فكرياً بين الفاروقي وزوجته لويز لمياء الفاروقي. كما حرص العدد على التعريف المفصّل بعدد من الأعمال العلمية التي قدمها الفاروقي. ومن الطبيعي أن تكون هذه الأعمال غير كافية في التعريف بالفاروقي وأهمية أعماله وإنجازاته. لكن ما لا يُدرك كُلُّه، لا يُترك جُلُّه. وقد أضفنا إلى هذه المواد المختارة قائمة بالأعمال المنشورة للفاروقي لعلها تعطي صورة عن جانب من جوانب تميّز الفاروقي، وهو جانب التأليف والبحث. أما الجوانب الأخرى في شخصيته، فكم نتمنى أن يسعفنا أولئك النفر الذين كانوا قريبين من الفاروقي ورافقوه في حلقة من حلقات مسيرته العلمية والعملية، أن لا يبخلوا بما يعرفون، ولا يقللوا من قيمة ما قد يكتبون وينشرون، فذلك حقُّ التاريخ أن يكتبوا بعض صفحاته، فيشهدوا بما عَلِمُوا، "ولا تكتموا الشهادة"، وحقُّ الأجيال القادمة أن ينقلوا إليها شيئاً مما أتاح الله لهم من الخبرة والتجربة.

ومن الجدير بالذكر أن المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية التي ينشرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي باللغة الإنجليزية[١] قد سبقت إلى نشر عدد خاص عن الفاروقي.

ومن المؤسف حقاً أن نلاحظ أن العقل المسلم المعاصر ما زال يعيش مرحلة التيه والاستجداء الفكري والمعرفي، وما زالت لَبِنات تكوين الشخصية الإسلامية تُعجن من أفكار الآخر، دون استشعار لمدى خطورتها على الشخصية الإسلامية، ومن ثم المجتمع المسلم، وأخيراً على المشروع الإسلامي، الذي من المفترض أن يكون المؤهل لقيادة البشرية نحو تحقيق السعادة، أو المشاركة على الأقل في بناء المشروع الإنساني. ولأجل ذلك نحن بحاجة كبيرة إلى أن نسترجع الأسئلة الفاروقية المتعلقة ببناء الشخصية الإسلامية، ما تمّ منها وأُنجز في صورة برامج أو محاضن جامعية أو مؤسسات فكرية وبحثية، أو دراسات وبحوث، فيقوم الدارسون والمفكرون باستيعابها وبالبناء عليها وترشيدها وتوجيهها بما ينسجم وهوية المجتمع، وتجاوزها إلى الحالة المثلى، وتفحُّص ما لم يُنجز بعدُ لسبب أو لآخر، وبيان المعوقات التي حالت دون إنجاز الأفكار الفاروقية. ولعل في كل ما سبق دعوة إلى إنشاء كراسي الفاروقي في المجالات المعرفية التي أبدع فيها، لا سيما في مجال مقارنة الأديان، والتاريخ الثقافي، والفلسفة، لكي يُستكمل مشروع الفاروقي الهادف إلى نهضة هذه الأمة.

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥) صدق الله العظيم

[١] اسم المجلة باللغة الإنجليزية (American Journal of Islamic Social Sciences) واختصارها AJISS وهي مجلة فصلية محكمة تصدر بانتظام منذ عام ١٩٨٥م (ثلاثة أعداد في السنة). والعدد الخاص عن الفاروقي هو العدد ٢٨ الصادر بتاريخ ٢٠١١.